جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

تعلم النحو بين هدفَي:
الاستعمال اللغوي والتكوين العقلي

إعداد

د/ بشير أحمد محمد عبد الحي الدماطي
مدرس النحو والصرف والعَروض
كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الرابع .. نوفمبر)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

تعلم النحو العربي بين هدفَي الاستعمال اللغوي والتكوين العقلي.

بشير أحمد محمد عبد الحي الدماطي

قسم النحو والصرف والعَروض، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني: bashier300@gmail.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان أن أهداف تعلم علم النحو العربي لها بُعدان؛ بُعد يفيد على مستوى الاستعمال اللغوي، ويندرج تحت هذا البعد هدفان يسعى دارس علم النحو إلى تحقيقهما في نفسه؛ أولهما: عدم اللحن تحدثا وكتابة، وثانيهما: فهم المعاني على نحو دقيق، والبُعد الثاني يفيد على مستوى التكوين، وفيه يحقق الدارس هدفا مهما هو البناء العقلي، وقد بينت هذه الأهداف جميعها، ثم فصلت القول في الهدف الأخير؛ لكونه مغفولا عنه في تعليم النحو العربي وتعلمه، فبينت مظهره المنهجي في بنية النحو ذاتها، ثم بينت مظاهره في معالجات النحاة، وكشفت كذلك عن العلاقة بين صعوبة النحو العربي وغياب هذا الهدف في تعليم النحو وتعلمه، وقد اعتمدت في هذا البحث عددا من الإجراءات شكلت منهج البحث؛ بدأتها بجمع المادة العلمية الخاصة بموضوع البحث واستقرائها من المصادر والمراجع، ثم أعملت فيها آلية التحليل للوصول إلى نتائج جزئية، ثم جرَّدت المادة المحلَّلة وصنفتها في أنساق تشكل الهيكل العام للبحث، ثم سعيت إلى تقييم الآراء والمعالجات المرصودة والمحللة هادفا للوصول إلى نتائج كلية حاكمة للبحث، ووصلت من خلال البحث إلى أن أهداف تعلم النحو العربي يجب ألا تنحصر في الهدف الاستعمالي فحسب، وإنما لابد من التنبه إلى الهدف التكويني المهم وهو البناء العقلي؛ لأن النحو يسهم في أن يتمكّن دارسه من التكلم على نحو صحيح، ويسهم أيضا في بناء عقله وتربية، وأوصي بأن تكون هناك دراسة موسعة يكون عملها تتبعَ هدف البناء العقلي واستقصاء مظاهره وآليات تحققه ومدى حضوره في كتب النحو العربي على اختلاف أنماطها ومنازعها ومناهجها.

الكلمات المفتاحية: تعلم، النحو، الاستعمال اللغوي، التكوين، العقلي.

Learning Arabic grammar between the goals of linguistic use and mental formation.

Bashir Ahmed Muhammad Abdel-Hay Al-Damaty
Department of Grammar, Morphology, and Prosody, Faculty of Dar Al-Ulum, Cairo University, Egypt.
Email: bashier300@gmail.com

Abstract:
This research aims to show that the goals of learning Arabic grammar have two dimensions: A dimension that is useful at the level of linguistic use, and under this dimension there are two goals that the grammar student seeks to achieve in himself: The first is: lack of melody in speaking and writing, and the second: understanding the meanings accurately, and the second dimension is useful at the level of composition, and in it the student achieves an important goal, which is mental construction, and I have explained all of these goals, then I detailed the statement on the last goal; Because it is overlooked in teaching and learning Arabic grammar, I explained its methodological appearance in the structure of grammar itself, then I explained its manifestations in the grammarians' treatments, and I also revealed the relationship between the difficulty of Arabic grammar and the absence of this goal in teaching and learning grammar. In this research, I adopted a number of procedures that formed a curriculum. search; I began by collecting scientific material related to the research topic and extrapolating it from sources and references. Then I used the analysis mechanism to reach partial results. Then I abstracted the analyzed material and classified it into formats that constitute the general structure of the research. Then I sought to evaluate the observed and analyzed opinions and treatments with the aim of arriving at comprehensive results governing the research. Through research, I concluded that the goals of learning Arabic grammar should not be limited to the usage goal only, but rather attention must be paid to the important formative goal, which is mental construction. Because grammar contributes to the learner being able to speak correctly, and it also contributes to building his mind and education, I recommend that there be an expanded study whose work is to trace the goal of mental construction and investigate its manifestations, mechanisms for achieving it, and the extent of its presence in Arabic grammar books, regardless of their styles, disputes, and approaches.

Keywords: Learning, Grammar, Linguistic use, Composition, Mental.

المقدمة

حمدًا لله وصلاةً وسلامًا على رسولِه، وبعدُ..

فإن المتأمل لمادة العربية من حيث نظامها التركيبي وظواهره، وكذلك معالجات النحاة وتحريراتهم وتحليلاتهم للمادة العلمية النحوية، يجد أن بين "النحو" و"علم النحو" فرقا مهما؛ فالنحو هو النظام التركيبي للغة أو للكلام والتفكير فيها، أما علم النحو فهو القواعد والضوابط والقوانين الممثلة لهذا النظام التركيبي والمعبرة عنه، وهذه القواعد والضوابط والقوانين شادها النحاة بناء على أسس منهجية حاكمة صاغوها بعدُ أيضا في فن مستقل هو "علم أصول النحو العربي"

وبناء على هذا فإن السبيل إلى إدراك النظام التركيبي للعربية وتعلمه كان هو هذه القواعد والضوابط والقوانين؛ أي أن علم النحو هو السبيل إلى إدراك النحو وتعلمه، وبناء على هذا المفهوم المحدد نستطيع القول إن لعلم النحو وظائف تمثلت فيما يأتي:

أولا: وضع القوانين العامة والقواعد والضوابط التي تمثل النظام النحوي التركيبي للغة.

ثانيا:البحث في الصيغ النحوية وتركيب الجمل من حيث اللفظ ومن حيث المعنى كذلك؛ لأن الإعراب فرع المعنى.

ثالثا:بيان مواطن الخطأ في الكلام وأنواعه وأسبابه.

رابعا: تمهيد الطريق المؤدية لتعلم العلوم الشرعية؛ إذ النحوُ العربي – كما هو معلوم – من علوم الأدوات أو علوم الآلة التي يستعان بإتقانها على فهم بعض علوم الآلة الأخرى وعلوم المقاصد واستيعابها؛ كعلوم القرآن الكريم وعلوم السنة النبوية، وعلم أصول الدين والعقائد وعلم الفقه.

وتلك هي الغاية العامة التي ينبغي أن يتغيَّاها دارسُ علم النحو العربي، وهي التي تدفعه إلى تعلمه.

، ومن ثم فإن المقصود من تعلم علم النحو ليس هو تحصيل قواعده وقوانينه، التي تمثل كتلته المعرفية، في ذاتها، وإنما المقصود هو تحقيق أهدافه وثمرته في نفس دارسه، بناء على تحصيل قواعده وقوانينه.

وثمة مسلمة ينطلق منها هذا البحث هي ضرورة الاهتمام بالعربية؛ انطلاقا من كونها لغة الكتاب العزيز وكونها هي مناط الإعجاز فيه، وحفاظا على هوية الأمة وتراثها الذي كُتب بالعربية، ومستقبلها، ولما كان ذلك لا يتم إلا بنشر العربية وتعليمها والتمكن منها فهما وإفهاما، كان البحث في أهداف تعلم النحو العربي ضرورة علمية نقف من خلالها على مدى ما يفيده الدارس منه، ويسهم في تحصيله واستثماره في الاستعمال اللغوي والتكوين العقلي.

ويتمثل إشكال البحث في أنه قد درَجَ كثيرٌ من المعلِّمين والمصنِّفين في علم النحو على حصر الهدف من تعلمه ودراسته في هدفٍ واحدٍ، لا يتجاوزونه إلى غيره، هذا الهدف هو الهدف الاستعمالي التطبيقي المتمثل في شيئين؛ أولهما: صونُ اللسان عن الخطأ في الكلام أو النطق، وصون القلم عن الخطأ في الكتابة، وثانيهما: فهم المعاني بناء على البناء النحوي للتراكيب ونظم الجمل.

وافترض البحث فرضية مفادها أن ثمة هدفا آخر له حضور قوي في علم النحو، سواء في بنيته المنهجية والعلمية ذاتها، أو في طرائق النحاة في معالجة المادة اللغوية النحوية، وهذا الهدف يعد هدفا تكوينيا لا هدفا استعماليا كسابقه، وبه تكتمل منظومة الأهداف المرجو تحقيقها من تعلم علم النحو العربي.

وبناء على هذا الإشكال وهذه الفرضية تثور لديَّ عدة أسئلة أحرص على بيان جوابها في هذا البحث، وهذه الأسئلة هي ما يأتي:

هل حقا تنحصر أهداف النحو العربي في هذا الهدف فحسب؟ وهل تحقيق هذا الهدف يُعَدُّ وظيفةَ أساسيةَ للنحو العربي؟

وهل ثَمَّةَ هدف آخر يمكن تحقيقه من خلال دراسة علم النحو وتعلمه؟ وإذا كان، فما طبيعة هذا الهدف وماهيته؟ وما مظاهر وجوده في النحو العربي؟ وما سبل تحقيقه في عقل الدارس؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة قمت بجمع المادة العلمية الخاصة بموضوع البحث واستقرائها من المصادر والمراجع، ثم أعملت فيها آلية التحليل؛ وهي آلية منهجية تُعنَى بتشريح المادة العلمية المستقراة وسبر أغوارها للوصول إلى نتائج جزئية، ثم جرَّدت المادة المحلَّلة وصنفتها في أنساق تشكل الهيكل العام للبحث، ثم سعيت إلى تقييم الآراء والمعالجات المرصودة والمحللة هادفا للوصول إلى نتائج كلية حاكمة للبحث.

وقد قام البحث على أربعة مباحث، عرضت في المبحث الأول الأهداف المرادة من تعلم علم النحو العربي، ثم كانت عنايتي في المباحث الثلاثة بعد ذلك متجهة نحو الهدف التكويني، فجاء المبحث الثاني ليبين المظهر المنهجي للبناء العقلي في النحو العربي، ثم كان المبحث الثالث في تفصيل مظاهر البناء العقلي وبيانها في عرض النحاة ومعالجتهم للمادة النحوية، ثم كان المبحث الرابع الذي تناولت فيه صعوبة النحو العربي وأثر هذا الهدف الغائب في تصور هذه الصعوبة.

والله ولي التوفيق

المبحث الأول

أهداف تعلم علم النحو العربي

أحب أن أقرر أولا أن الأهداف المقصودة، التي يسعى الدارس إلى تحقيقها ابتداءً حين يتعلم هذا العلم هي – فيما أرى – مما هو واجبٌ علمُه على كل من أراد ارتقاء درج علم النحو، وهذه الأهداف تتسم بأنها أهدافٌ **مرحليَّة**، ومن ثم فأستطيع أن أقسمها، من حيث ثمرة علم النحو ونتيجة تعلمه، إلى قسمين؛ القسم الأول: هو **الهدف الاستعمالي**، الذي تكون ثمرته في الاستعمال والتطبيق اللغوي تحدثا وكتابة وقراءة أو فهما وإفهاما، ويمكن أن أنوِّع هذا القسم إلى نوعين يمثل كل منهما هدفا استعماليا تطبيقيا؛ أولهما: إقامة اللسان. وفي ذلك قيل:

النحو يبسط من لسان الألكنِ ..... والمرء تكرمه إذا لم يلحنِ

وإذا طلبت من العلوم أجلَّها ..... فأجلُّها منها مقيم الألسنِ[١]

وثانيهما: فهم المعاني على نحو دقيق. وقد أشار ابن مالك لهذا الهدف والهدف السابق في قوله في الكافية الشافية[٢]:

وبعدُ فالنحوُ صلاحُ الألسنة ... والنفسُ إن تعدمْ سَناهُ في سِنة

به انكشافُ حُجُبِ المعاني ... وجلوة المفهوم ذا إذعان

والقسم الثاني: هو الهدف التكويني، والمقصود به ما يسهم بتحققه – من خلال تحصيل علم النحو – في بناء العقل لدى الدارس، فهو تكوين عقلي

---

١) البيتان لإسحاق بن خلف، وهما من بحر الكامل التام، انظر: المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م. ج٢ ص ١٩

٢) ابن مالك ، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الجياني، شرح الكافية الشافية: ، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م. ج ١ص ١٥٥

للدارس من خلال تحصيل علم النحو، وهذا الهدف التكويني لم يغب قطُّ عن عقول نحاتنا القدامى، ومن يطالع كتبهم، على تباين مراميها واختلاف أساليبها، يجد صدق هذا؛ إذ النحو وسيلة لغيره، باعتباره تهيئة علمية وعقلية للمتعلم لاستقبال غيره من العلوم التي هي مبنية عليه وراجعة في الفضل إليه.

وقد أشرت سالفا إلى ما درَجَ عليه كثيرٌ من المعلِّمين والمصنِّفين في علم النحو من الاقتصار على ذكر الهدفِ الاستعمالي بنوعيه، لا سيما النوع الأول منه، وهو صونُ اللسان عن الخطأ في الكلام أو النطق، وصون القلم عن الخطأ في الكتابة، الذي كان أكثر الأهداف شيوعا وذكرا في تعليم النحو وتعلمه، وقد كان سبيل تحقيق هذا الهدف هو بيان كيفية ضبطِ الكلمات ونظامِ تأليف الجمل([1])، ثم النوع الثاني من نوعي الهدف الاستعمالي، وهو فهم المعاني على نحو أدق، وهو هدف مهم، وله شواهدُ وتطبيقاتٌ كثيرةٌ في معالجات النحاة والمفسرين لنص القرآن الكريم وغيرِه من النصوصِ البيانيةِ العالية، تدُلُّ على أهميته، وتُبَيِّنُ مدَى توقُّفِ فَهْمِ معانيها على النحو العربي، إضافة إلى ما تصنعه وسائل تحقيق هذا الهدف من تعميق لوجدان الدارس؛ إذ تُعرض فيه القاعدة النحوية من خلال النص، ويُعالجُ النصُّ ساعتئذٍ من خلال النظرية النحوية، أو بتعبير آخر: تُطبَّقُ النظرية النحوية حينئذٍ على النص ، فيكون النص هو المنطَلَق. والتعامل مع النص على هذا النحو يعَدُّ – في نظري – مما يعمق الإحساس باللغة وتذوقها.

ولا ريب في أن تحقيق هذا الهدف الاستعمالي بنمطيه اللفظي والمعنوي يُعَدُّ الوظيفةَ الأساسيةَ للنحو العربي، ولكن ثمة هدفا مهما أيضا لا تذكره كتب

١) انظر على سبيل المثال: عبد العليم إبراهيم: النحو الوظيفي، دار المعارف، الطبعة الثانية عشرة ، د.ت. المقدمة.

النحو هو الهدف التكويني الذي يسهم به تحصيل علم النحو في بناء العقل، وهو هدف من الأهمية بمكان، ولا يمكن إغفال دوره في تحقيق الثمرة المرجوة من تعلم علم النحو؛ إذ إنه هدفٌ تكوينيٌّ يُهيِّئُ طالب العلمِ تهيئةً عقليةً لاستقبال العلوم الأخري الآلية والمقاصدية واستيعابها.

وبذلك نستطيع القول أن لدينا أهدافا ثلاثة على التفصيل للنحو العربي، لا هدفا واحدا كما شاع، والهدفان الأوَّلانِ كِلاهما هدفٌ استعماليٌّ يفيد الدارِسَ على مستوى التطبيق والممارسة؛ نطقًا وكتابةً وفهمًا للمعاني في أثناء التعامل مع النصوص، أما الهدفُ الثالث فهو هدف يفيد الدارس علىمستوى التكوين والبناء العقلي له.

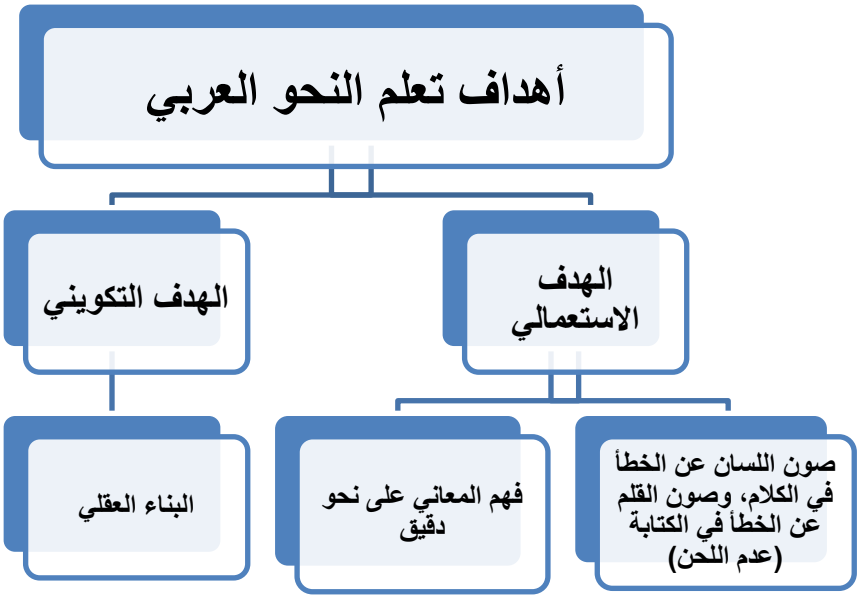

وبناء على ما سبق من بيان إشكال البحث، فإن عنايتي ستكون بذكر الهدف التكويني في تعليم علم النحو وتعلمه وهو البناء العقلي، وتفصيل القول فيه في المباحث القادمة، على النحو الآتي:

المبحث الثاني

المظهر المنهجي للبناء العقلي في النحو العربي

**المُطالِع لكثير من أنماط التآليف النحوية والمستكشف لِمَا انطوت عليه من أهداف، يطمئن إلى التصور بأن النحو كما أنه يمُدّ المرءَ بما يلزمه ليتكلم على نحو صحيح، فإنه يمُدّه كذلك بما يلزمه ليفكر على نحو صحيح[١].

وقد ورد عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال: "تعلموا العربية فإنها تزيد المروءة وتثبت العقل"[٢] وهو هنا يتحدث عن العربية من حيث كونها مادة لغوية تركيبية لا من حيث كونها قواعد ومصطلحات. وفي قولته هذه إشارة إلى أن العربية تنطوي على طبيعة خاصة تجعل لها دورا في البناء العقلي لدارسه، ولعل جهد النحاة – في محاولتهم ضبط المادة اللغوية للعربية وتقعيدها وتفسيرها – كان كاشفا عن هذه الطبيعة ومفسرا لها، ولعل هذا أيضا هو ما جعل جهدهم – على مستوى الضبط تقعيدا وتبويبا، وعلى مستوى التفسير توجيها وتعليلا – مسهما أيضا على نحو واضح في تربية العقل وتنمية ملكته لدى الدارس.

---

١) انظر: جون والبريدج: الله والمنطق في الإسلام (خلافة العقل): ، ترجمة : تركي المصطفى ، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، الطبعة الأولى ، ٢٠١٨م. ص ١٧٠

٢) انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) معجم الأدباء، ويسمى: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م. ج ١ ص ٢٢ . وانظر كذلك : الزَّبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، (المتوفى: ٣٧٩هـ)، طبقات النحويين واللغويين تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، سلسلة ذخائر العرب ٥٠. ج ١ ص ١٣

وقد كانت الآلية المعرفية الذهنية الأساسية لصوغ قواعد علم النحو وإنتاجها هي: قياس الغائب على الشاهد، وحمل الفرع على الأصل [١]، وهذان مظهران لأصل عقلي منهجي مهم اعتمد عليه النحاة على نحو واسع جدا في استنباط القواعد، وهو أصل القياس، إلى الحد الذي يمكن القول معه إن النحو كله قياس، أو إن النحو هو القياس، وقد قال الكسائي:

إنما النحو قياسٌ يُتبعْ[٢]

ولا تخفى دلالة القصر في قوله هذا، كما لا يخفى كذلك المنحى العقليُّ الخالص الذي يكون عليه القياس، وكذلك مظهره العملي وهو الاستنباط ؛ وهذا

---

١) انظر: . محمود أمين العالم، ملاحظات منهجية تمهيدية حول نقد الجابري للعقل العربي ، بحث منشور بكتاب "العقلانية العربية والمشروع الحضاري" وهو عدة أبحاث ، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية – الرباط – المملكة المغربية ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م. ص٢٦١. وهذه الآلية المعرفية الذهنية تستنبط من كلام الدكتور محمد عابد الجابري على "علوم البيان" في كتابه: " بنية العقل العربي .. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية". مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السادسة، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠م. فقد قسم الجابري النظم المعرفية ، التي هي مكونات العقل العربي داخل الثقافة العربية، إلى ثلاثة نظم؛ هي: علوم البيان ، وعلوم العرفان، وعلوم البرهان. ويعني بعلوم البيان: النحو والفقه والكلام والبلاغة، وهي عنده علوم استدلالية خالصة، وقد خصص القسم الأول من كتابه هذا للحديث عن "علوم البيان" من صـ ١٣ إلى صـ ٢٤٨، وفصَّل القول في بيان الآليات المعرفية العقلية التي بها أُنتجت علوم البيان، ويستنبط من كلامه هذه الآلية التي ذكرتها وهي قياس الغائب على الشاهد وحمل الفرع على الأصل، وأنا أوافقه على هذا؛ لأنه – بالفعل – كان المظهر المنهجي الغالب لضبط المادة النحوية وتفسيرها.

٢) انظر: القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، الطبعة الثانية . ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م. ج٢ ص ٢٦٧

القياس – حالَ الاستنباط – نستدل فيه بالكلي على الجزئي[١]؛ أي أنه يسير من الكلي إلى الجزئي، والهدف منه هو إثبات الجزئي. ويذهب أبو البركات الأنباري إلى أن إنكار القياس في النحو لا يتحقق؛ لأن النحو قياس كله، فمن أنكره فقد أنكر النحو[٢]. وذكر أنه "إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلا، وجب أن يكون قياسا وعقلا"[٣]

**وقد ورد عن النحاة ما يبين وعيهم بالمنحى الفكري العقلي الذي يفيده النحو في نفس دارسه؛ تربيةً للعقل وتقويةً لملكته، مما جعلهم يستعينون به على استنباط مفاهيم من علوم أخرى يعد النحو ركيزة من ركائز فهمها. تأمل مثلا قول الجرمي[٤] : "أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس من كتاب سيبويه" فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا رجل مكثر من الحديث، وكتاب سيبويه يعلمني القياس، وأنا أقيس الحديث، وأفتي به. [٥] ووردت القصة برواية أخرى فيها أن أبا بكر بن شقير قال حدثني أبو جعفر الطبري قال: سمعت الجرمي يقول: أنا مذ ثلاثون أُفتِي الناس في الفقه من كتاب سيبويه. قال: فحدَّثتُ به محمد بن يزيد على وجه التعجب

١) عبد الرحيم فرج الجندي، شرح السلم في المنطق للأخضري، المكتبة الأزهرية للتراث. د.ط. ١٤١٨ هـ . ١٩٩٨م.ص٨٧

٢) انظر : ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات، رسالتان لابن الأنباري: لمع الأدلة في أصول النحو، والإغراب في جدل الإعراب، تحقيق سعيد الأفغاني. مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٧هـ . ١٩٥٧م. ص ٩٥

٣) السابق: ٩٩

٤) هو أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي. انظر ترجمته في: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج٢ ص٨٠ – ٨٣ وفي: اليماني، عبد الباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٣هـ)، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق ودراسة: د.عبد المجيد دياب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ٢٠١٦م. ص١٤٥

٥) ياقوت الحموي، معجم الأدباء. ج ٤ ص ١٤٤٣

والإنكار، فقال: أنا سمعتُ الجرميَّ يقول هذا، وأومأ بيده إلى أذنيه، وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحبَ حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقَّه في الحديث؛ إذ كان كتاب سيبويه يُتعلَّم منه النظر والتفتيش.[١]

ويذكر القفطي في إنباهه[٢] أن محمد بن الحسن الفقيه[٣]، كان ابن خالة الفرّاء، وكان الفرّاء عنده يوما جالسا، فقال الفرّاء: قلّ رجل أنعم النظر في باب من العلم، فأراد غيره إلا سهل عليه؛ فقال له محمد: يا أبا زكرياء، فأنت أيضا قد أنعمت النظر في العربية؛ فنسألك عن باب من الفقه، قال: هات على بركة الله، قال: ما تقول في رجل صلّى فسها، فسجد سجدتى السهو، فسها فيهما؟ ففكر الفرّاء ساعة ثم قال: لا شيء عليه، قال له محمد: ولم؟ قال: لأنّ التصغير عندنا لا تصغير له، وإنما السّجدتان تمام الصلاة، فليس للتّمام تمام، فقال محمد بن الحسن: ما ظننت آدميّا يلد مثلك.

وقد ذكر ابن جني في خصائصه – في باب ما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية – أنه لولا ما تعطيه العربية صاحبها من قوة النفس ودربة الفكر لكان هذا الموضع[٤] ونحوه مَجُوزا عليه ، غير مأبوه له.[٥]

وقد يَرِدُ على هذا أن جانب الفكر يختص به علم المنطق؛ حيث إنه يحفظ العقل عن الخطأ في التفكير، والنحو يصون اللسان عن الخطأ في

---

١) انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ج١ ص ٧٥

٢٢) انظر: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ٤ ص ١٣ . ١٤ .

٣) انظر لترجمته:القفطي، إنباه الرواة. ج٢ ص٢٦٨ – ٢٦٩

٤) يقصد بـ"هذا الموضع" توجيهه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف ٢٨]

٥) انظر : ابن جني،أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة ٢٠١١م. ج٣ ص ٢٥٨

الكلام[١] ، ومن ثم فإن المنطق يبحث في المعنى والنحو يبحث في اللفظ، وهذا هو ما ذكره متَّى بن يونس في مناظرته مع السيرافي[٢]، والجواب عن هذا أنه لا يزال المنطق والنحو متشابهين متناظرين من حيث إن كُلًّا منهما ينظر في الاستعمال الصحيح للقول. وقد نشأ نشأة منطقية تخضع للعقل[٣]، وكان الدرس النحوي درسا منطقيا[٤]

ولا أقصد هنا ما ذهب إليه بعض المعاصرين من أن النحو قد تأثر في نشأته بالمنطق الأرسطي[٥]، وإنما أقصد أن النحو يعنى بالمعاني – التي هي

---

١) انظر: عبد الرحيم فرج الجندي، شرح السلم في المنطق للأخضري. ص٣

٢) انظر : أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي ، المكتبة العصرية بصيدا وبيروت بلبنان، د.ط ١٤٣٢هـ . ٢٠١١م. ص٩٣

٣) انظر: فتحي عبد الفتاح الدجني، النزعة المنطقية في النحو العربي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م. ص٥١

٤) وقد أشار أيضا الدكتور محمد عابد الجابرى في كتابه: "بنية العقل العربي..." إلى أن الدرس النحوي كان درسا منطقيا، وأن النحاة صاروا يرون في النحو منطقا يعنى بالمعاني عنايته بالألفاظ، انظر ذلك في ص١٠٥.

٥) انظر على سبيل المثال: إبراهيم بيومي مدكور، "منطق أرسطو والنحو العربي" ، بحث منشور بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٥٣ من صـ ٣٣٨ إلى ٣٤٦ . و مهدي المخزومي، "مدرسة الكوفة. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ . ١٩٥٨م. ص٢٦٠ – ٢٦١ ، وأمين الخولي، "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير" ، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٩٦١م. ص٧٢. وعبد الرحمن محمد أيوب، "دراسات نقدية في النحو العربي" نشر وتوزيع مؤسسة الصباح، د.ت. ص ٩ – ١١. وهي دعوى = = لا تقوم على دليل واضح، ومناظرة السيرافي مع متىَّ المشار إليها تقول بضدها، وهناك دراسات تناولتها بالتفنيد والرد؛ انظر مثلا: عبد الرحمن الحاج صالح، "النحو العربي ومنطق أرسطو" ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب ، جامعة الجزائر، العدد الأول ١٩٦٤م. ص ٦٧ – ٨٦ . وعبد القادر المهيري، "خواطر حول =

عقليةٌ تمثل جانب الفكر – عنايته بالألفاظ، والمتأمل في القواعد النحوية يرى أن معظمها يمثل قواعد للفكر أيضا. وهذا هو ما ذكره السيرافي في رده على متَّى؛ حيث نبهه إلى عناية النحو بالمعاني العقلية، وذكر أن النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية ، وأن المنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة، وخطَّأه في ادعائه بأن النحوي إنما ينظر في اللفظ دون المعنى ، والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ[١] ، مما جعل السيرافي يرى أن في معرفة العربية غُنيةً عن المنطق، الذي رآه السيرافي ذاته نحوا للغة اليونانية أو "معاني يونان" كما سماه هو[٢]؛ من حيث كونها تمدنا بقوانين التفكير المنهجي التي تجعلنا نتكلم ونفكر على نحو صحيح، الأمر الذي يجعل المنطق اليوناني فضلة لا حاجة لنا به.

وهذا هو المظهر المنهجي للنحو العربي الذي يجعله مسهما في بناء العقل لدى دارسه، ونحن نلمس هذا المظهر واضحا أيضا في معالجات كثير من

=

علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة"، بحث منشور بحوليات الجامعة التونسية، العدد العاشر ١٩٧٣م. ص ٢١ – ٣٦. وقد ذكر فيه أن المنطق إن كان قد وجد إلى النحو سبيلا بمقولاته ومبادئه وفرضياته فإن ذلك لم يكن في عهد نشأته وإنما كان ابتداء من القرن الثالث.

١) انظر: أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة. ص٩٣ – ٩٦.

٢) انظر: السابق. ص٩٢. وقد صنَّف الرواقيون – وهم من فلاسفة اليونان – النحوَ في اللغة اليونانية على أنه جزء من المنطق، وذلك في تقسيمهم للعلوم. انظر: جون والبريدج، الله والمنطق في الإسلام. ص١٦٨. والرواقيون هم أصحاب مدرسة فلسفية يونانية نسبت إليهم، هي المدرسة الرواقية، ومؤسس هذه المدرسة هو زينون القبرصي، وهو يوناني من أصل فينيقي، انظر: ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة. د.ط ١٩٨٤م. ص٢٧٩

النحاة وتحليلاتهم وتعليلاتهم وعرضهم للمادة النحوية ، على ما سيبين البحث في المباحث القادمة.

**وقد وظَّف النحاةُ المنهج العقلي توظيفًا جيدًا، ويتضح من خلال مطالعة كتبهم ، أن للبعد العقلي أثرًا كبيرًا في معالجاتهم ، مما جعلهم يفردون كتبا تربي عقول طلاب العلم لتهيئهم لاستقبال علوم أخرى يعد النحو آلة لفهمها؛ ليس فقط من حيث إقامة اللسان وفهم المعاني، ولكن من حيث التربية العقلية لاستقبال هذه العلوم، وليكون ذلك تدريبا لهم على معرفة المشكل من كلام العلماء، وكشف الموهم من أساليبهم وتفكيك كلامهم عامة.

وقد كان هدف البناء العقلي هذا واضحًا وضوحًا شديدا عند نحاتنا القُدَامَى، وكانت له عندَهُمْ مظاهرُ وصُورٌ متعددة، بدت في عرض النحاة ومعالجاتهم للمادة النحوية. وهذا هو ما سأتناوله في المبحث التالي.

المبحث الثالث

مظاهر البناء العقلي في عرض النحاة ومعالجتهم للمادة النحوية

استخدم النحاة – في سياق سعيهم لتحقيق هدف البناء العقلي – آلياتٍ عدة ؛ رصد البحث منها ستًّا. وتمثل هذه الآليات مظاهر البناء العقلي في المعالجة، وتفصيلها على النحو الآتي:

أولا: التعليل:

وهو ذكر سبب الحكم أو القاعدة بهدف الإقناع بها وبيان الحكمة التي انطوت عليها وتفسيرها؛ إذ إن علماء العربية كانوا يعتقدون أنها منطوية على مكنون حكمة، وكان أحد مسارات جهدهم الفكري في التعامل مع المادة النحوية هو بيان هذه الحكمة وتفسيرها. ولعل في النص الذي أورده الزجاجي منسوبا للخليل ابن أحمد ما يفيد ذلك؛ إذ إن الخليل سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو: " أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: "إنَّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعَرَفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنْقَلْ ذلك عنها. واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه. فإن أكن أصبتُ العلة فهو الذي التمستُ، وإن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجلٍ حكيمٍ دخل دارًا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صَحَّتْ عنده حكمة بانيها، بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها، قال: إنما فعل هذا هكذا العلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائزٌ أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائِزٌ أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سَنَحَ لغيري علة لما عللته من النحو هي أليقُ مما ذكرته بالمعلول فليأتِ بها" [١]

---

١) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، الإيضاح في علل النحو، تحقيق الدكتور مازن المبارك، الطبعة السادسة دار النفائس . بيروت ١٤١٦هـ . ١٩٩٦م . ص ٦٥ – ٦٦.

وهذا النصُّ النفيسُ يمكن أن تُستنبط منه بعضُ الحقائق التي كانت كامنة في عقول النحاة واللغويين القدامى، وهي حقائق عامة تتصل باللغة ككل، ومن هذه الحقائق المهمة – في سياق بحثي هذا – إدراكُ القدماء أن اللغة بناءٌ محكم؛ حيث شبهها الخليل هنا بالدار المحكمة البناء التي تدلُ على حكمة بانيها وحسن صنعه(١).

والتعليل شيء يلي القاعدة ، وفرق بين إدراك القاعدة التي هي قريبة من طباع النفس الإنسانية ، وبين علل القاعدة ووجوهها التي هي شيء ينال بعد الكد والوكد وإعمال العقل؛ ومن ثم فإن التعليل النحويّ بابٌ من علم العربية، وأصْلٌ من الأصول، لا يستغني عنه من أراد أن يعرف فلسفة النحو معرفة تعصمه من الحيرة، وتُسَدِّدُ خطاه في أبوابه المختلفة. وقد حرص كثير من النحاة في تآليفهم على ذكر علل القواعد والأحكام النحوية ؛ بل إنهم أفردوا للحديث عن العلل النحوية كتبا(٢). وقد هدفت هذه الكتب إلى شيء فوق تحصيل القواعد ، وهو بناء بناء العقل ، إلى جانب أن العلل تسهم – على نحو كبير – في الإقناع بالقاعدة، وتسهم كذلك في تعميق وجدان الدارس؛ إذ إنها تبين الحكمة التي انطوى عليها كلام العرب وهي حكمة تعبر عن دقائق معنوية عقلية يتعلق القلب بها.

---

١) يُنْظَر: نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٢م. ص ١٨٧، ١٨٨

٢) مثل كتاب: "الإيضاح في علل النحو" لأبي القاسم الزجاجي(ت٣٣٧هـ). وللزجاجي فيه كلام تنظيري عن أنواع العلل النحوية والغرض منها تحت باب القول في علل النحو ، انظره ص ٦٤ . وهناك كتاب علل النحو لابن الوراق(٣٨١هـ) حقق عدة تحقيقات؛ منها: تحقيق محمود جاسم محمد الدرويش، وتحقيق الدكتور منصور علي عبد السميع. وكتاب: "أسرار العربية" لأبي البركات الأنباري(٥٧٧هـ) حقق عدة تحقيقات؛ منها: تحقيق محمد بهجت البيطار وتحقيق فخر صالح قدارة وتحقيق د/ محمد راضي مدكور ووائل محمود سعد عبد الباري.

ثانيا: الإلغاز:

وقد صار ذلك فنا من الفنون التي ألف فيها العلماء، وسُمِّي بـ"فن الألغاز النحوية"، وهو في النحو قديم قدم النحو ذاته؛ وقد جاءت هذه الألغاز نثرا وشعراوقد جمع بعض العلماء أبياتا ملغزة من الشعر في كتب؛ مثل كتاب "الإفصاح في شرح أبيات مُشكِلَة الإعراب" للحسن بن أسد الفارقي(ت٤٨٧هـ) [١]. ، وهناك كتاب "الأحاجي النحوية" للزمخشري (ت٥٣٨هـ) [٢]، ولعلم الدين السخاوي(٦٤٣هـ) شرح عليه، وأضاف إليه ألغازا لم يذكرها الزمخشري. وقد أنشأ ابن الدهان سعيد بن المبارك النحوي (ت٥٦٩هـ) قصيدة في عويص الإعراب شرحها ابن الخباز النحوي الموصلي(ت٦٣٩هـ)[٣]، وهناك كتاب"الألغاز النحوية" لابن هشام الأنصاري(ت٧٦١هـ) [٤]، وهناك كتاب "موقظ الوسنان وموقد الأذهان" لابن هشام أيضا، وعنوان الكتاب فيه دلالة على الهدف الذي يرمي إليه ابن هشام ، وهو ما نسعى للتأكيد عليه هنا. وللسيوطي(ت٩١١هـ) رسالة بعنوان "الطراز في الألغاز" وهي في كتابه "الأشباه والنظائر في النحو"[٥]. وثمة منظومة في الألغاز النحوية أنشأها وشرحها الملا عصام الإسفراييني(ت١٠٣٧هـ)[٦].

---

١) حققه سعيد الأفغاني.

٢) حققه مصطفى الحدري.

٣) حققها الدكتور عبد الرحمن العثيمين.

٤) حققه الدكتور موفق فوزي الجبر.

٥) انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم . الطبعة الثالثة، عالم الكتب ، القاهرة ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م. ج٤ ص١٨٤ – ٣١٤

٦) حققها الدكتور علي حسين البواب.

وقد ذكر بعض العلماء أنها قسمان: قسم يطلب به تفسير المعنى، وقسم يطلب به تفسير الإعراب[١]. والغرض الرئيس منها هو امتحان الأذهان وتقويمها وشحذها ورياضتها وإعانتها على فهم الدقائق. وقد نبَّه عددٌ من العلماء إلى الفائدة من هذا الفن وأهميته[٢]

ثالثا: الافتراض:

وقد أنتجت هذه المعالجة منهجا يحرص على توليد صيغ جديدة ليست مما استعمله العرب ، وكان الهدف منها رياضة العقل وتمكين المقاييس من النفوس وتثبيتها، وكان وجودها في مسائل الصرف أكثر منه في مسائل النحو.

وقد وجدت ابن جني قد عرض لهذه المعالجة في أكثر من باب في كتابه "الخصائص"، وبيَّن ما لها من أهمية في شحذ العقل وبنائه؛ فمن ذلك بابٌ سمَّاه: "باب في الغرض من مسائل التصريف" قال فيه: "وذلك عندنا على ضربين: أحدهما الإدخال لما تبنيه في كلام العرب والإلحاق له به. **والآخر التِمَاسُكَ الرياضةَ به والتدربُ بالصنعة فيه**"[٣].

---

١) انظر لتأصيل هذين القسمين : السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، ج٤ ص١٨٤، ١٨٥، ١٨٦. وقد نقل السيوطي هذين القسمين عن ابن هشام في "موقظ الوسنان وموقد الأذهان".

٢) انظر على سبيل المثال: ابن الأثير، ضياء الدين، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة. د.ط، د.ت. ج٣ ص٨٦ . وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين يالتقايا والمعلم رفعت بيلكة الكليسي. طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان. د.ط، د.ت. ج١ ص١٣

٣) ابن جني، الخصائص ج ٢ ص ٤٨٩

ثم مثل للثاني بقوله: "الثاني: وهو نحو قولك في مثل فيعول من شويت: شَيْوِيّ، وفي فعول منه: شُووِيّ، وفي مثل عَصْرفُوط من الآءة: أَوْ أَيُوء، ومنها مثل صُفُرُّق: أُوُوْيُوْ، ومن يوم مثل مَرْمَريس: يَوْيَوِيم، ومثل ألندد أيَنْوَم، ومثل قولك في نحو افعوعلت من وأيت: ايأوْأيت.**فهذا ونحوه إنما الغرض فيه التأنس به وإعمال الفكرة فيه لاقتناء النفس القوة على ما يرد مما فيه نحو مما فيه.** ويدلك على ذلك أنهم قالوا في مثال إوزة من أويت: إياة، والأصل فيه على الصنعة إيَوِيَة، فأعلت فيه الفاء والعين واللام جميعًا. وهذا مما لم يأت عن العرب مثلهُ. نعم، وهم لا يوالون بين إعلالين إلا لمحًا شاذًّا ومحفوظًا نادرًا، فكيف بأن يجمعوا بين ثلاثة إعلالات هذا مما لا ريب فيه ولا تخالج شك في شيء منه"[١].

وقد عقد ابن جني أيضا بابا في خصائصه بعنوان:"باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف" ذكر فيه عددًا من الأمثلة الافتراضية ، ثم قال في آخره متحدثا عن الغرض من هذه المسائل ومدى الانتفاع بها: " **وهذا ونحوه إنما الغرض فيه الرياضة به، وتدرب الفكر بتجشمه، وإصلاح الطبع لما يعرض في معناه وعلى سمته،** فأما أن يستعمل في الكلام (مُضَرِيّ) من (ضرب) ، و(تَنَفِيّ) من (نزف) فلا. ولو كان لايخاض في علم من العلوم إلا بما لابد له من وقوع مسائله معينة محصلة لم يتمّ علمٌ على وجه، ولبقي مبهوتا بلا لَحْظٍ ، ومخشوبا بلا صنعة،ألا ترى إلى كثرة مسائل الفقه والفرائض والحساب والهندسة وغير ذلك من المركَّبات المستصعبات، وذلك إنما يمر في الفرط منها الجزء النادر الفرد، **وإنما الانتفاع بها من قِبَل ما تقنِيه**

١) ابن جني، الخصائص ج٢ ص٤٩٠

النفسُ من الارتياض بمعاناتها"[١] وابن جني في هذا النص يعطينا قاعدة علمية في العلوم بعامة تفيد أنه لابد في العلوم من عدم الاقتصار على مسائل العلم الواقعية فقط ؛ ويعد ابن جني ذلك من تمام العلم.

وذكر كذلك بابا في نهاية الخصائص عنوانه : "باب في المستحيل ، وصحة قياس الفروع على فساد الأصول " وذكر أن الكلام فيه من موضعين:

أحدهما: ذكر استقامة المعنى من استحالته، والآخر: الاستطالة على اللفظ بتحريفه والتلعب به، ليكون ذلك مدرجة للفكر، ومشجعة للنفس، وارتياضا لما يرد من ذلك الطرز."[٢]، ثم قال :" وليس لك أن تقول: فما في الاشتغال بإنشاء فروع كاذبة، عن أصول فاسدة! وقد كان في التشاغل بالصحيح، مغنٍ عن التكلف للسقيم. هذا خطأ من القول، من قبل أنه إذا أصلح الفكر، وشحذ البصر، وفتق النظر، كان ذلك عونا لك، وسيفا ماضيا في يدك."[٣].وذكر بعد ذلك أن الغرض من وقوعه هو **التدرب به والارتياض بالصنعة فيه**[٤].

هذا وقد هاجم عددٌ من العلماء هذه المعالجة هجوما شديدا؛ وذلك لما ينتج عنها من صيغ وتراكيب لم تؤثَر عن العرب، ومن ثم فهي لاتفيد الدارس نطقا، وسأعرض شيئا من هذه الآراء في العنصر الثالث والأخير من البحث، مبينا ما انطوى عليه هذا الهجوم من حصر لأهداف النحو العربي في سلامة النطق.

رابعا: القواعد الكلية الحاكِمة:

تعد هذه القواعد من أهم المظاهر المنهجية العقلية التي لها دور كبير في بناء عقل الدارس؛ إذ إنها كانت ناتجًا لاستقراء النحاة للمادة اللغوية، والاستقراءُ

١) ابن جني، الخصائص ج٢ ص ٩٢ . ٩٣

٢) السابق ج ٣ ص ٣٣١

٣) السابق ج٣ ص٣٣١ – ٣٣٢

٤) انظر : السابق ج ٣ ص ٣٣٣

إجراءٌ منهجي تُتَتَبَّعُ فيه الجزئياتُ للوصول إلى الكليات، وهذا يعني أن الآلية العقلية المنتجة فيه كانت هي الاستدلال بالجزئيات على الكليات، أو بتعبير آخر: الانتقال من الجزئيات للكليات، بهدف الوصول إلى قواعد كلية، تكون حاكمة لعدد كبير من الجزئيات، مما يجعل لهذه القواعد أثرًا كبيرًا في عقل الدارس؛ إذ إنها تُحكِم المادةَ النحويةَ في عقله ، ويستطيع من خلالها استحضار عدد كبير من الجزئيات. ويمكن تسمية هذه القواعد بـ"القواعد الكلية الأصولية الحاكمة"، وقد سماها الدكتور تمام حسان بـ"قواعد التوجيه"[١]؛ وذلك لما لها من دور رائد في توجيه النصوص وتحليلها.

ومن أمثلة هذه القواعد في النحو العربي؛ قول النحاة :"ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج" وقولهم: "ما جاء على أصله لايسأل عن علته" وقولهم: "لايجتمع مثلان". وغيرها كثير، وقد وجدت هذه القواعد على نحو تطبيقي منثورة في الكتب النحوية على اختلاف أنماطها، لكنه وجود متفاوت أيضا، ولا أعلم أحدا نظّر لها قبل ابن هشام الأنصاري ؛ فإنه قد عقد لها الباب الثامن والأخير في كتابه المغني بعنوان: " في ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية" [٢]، وذكر منها إحدى عشرة قاعدة. تلاه السيوطي الذي جعلها

١) انظر: تمام حسان، الأصول: دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب : النحو . فقه اللغة . البلاغة .. طبعة عالم الكتب ، القاهرة ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م. ص١٨٩. وقد علل لهذه التسمية بارتباط هذه القواعد بالتعليل وتوجيه الأحكام عند التأويل. وذكر أنها "ضوابط منهجية" وأنها كانت "دستورا" للنحاة. انظر ص١٩٠.

٢) انظر: ابن هشام الأنصاري، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الطلائع . القاهرة . د.ط ، د.ت. ج٢ ص٣٣١

الفن الأول في كتابه "الأشباه والنظائر في النحو" وعنوانه:" فن القواعد والأصول العامة" (١)

وأهم سمة لهذه القواعد هي كُلِّيتُها؛ وهذا يعني أنها لا ترتبط بباب معين من أبواب النحو؛ وذلك لأن الجزئيات المندرجة تحتها – والتي لا تنحصر على حد تعبير ابن هشام السالف – تكون موزعة على الأبواب النحوية المختلفة.

وفي كتاب "أسرار العربية" لأبي البركات الأنباري، ما يبين هذا المظهر الذي كان يعرض المسائل منتقلا من الجزئيات إلى الكليات؛ حيث يقول عن "ما" التعجبية: " فإن قيل: فما معناها؟ قيل: اختلف النحويون في ذلك؛ فذهب سيبويه وأكثر البصريين إلى أنها بمعنى شيء، وهو في موضع رفع بالابتداء، "وأحسن" خبره؛ تقديره: شيء أحسن زيدًا؛ وذهب بعض النحويين من البصريين إلى أنها بمعنى الذي، وهو موضع رفع بالابتداء، و"أحسن" صلته، وخبره محذوف؛ وتقديره: الذي أحسن زيدًا شيء؛ وما ذهب إليه سيبويه والأكثرون أَولى؛ لأنّ الكلام على قولهم مستقلّ بنفسه، لا يفتقر إلى تقدير شيء، وعلى القول الآخر، يفتقر إلى تقدير شيء، **وإذا كان الكلام مستقلاً بنفسه، مستغنًا عن تقدير، كان أولى مما يفتقر إلى تقدير**."(٢)

ويقول في باب "المصدر" : " فإن قيل: فعلى ماذا ينتصب قولهم: "قَعَدَ القُرفصاءَ" ونحوه؟ قيل: ينتصب على المصدر بالفعل الذي هو قبله؛ لأن القرفصاء لما كانت نوعًا من القعود، والفعل الذي هو "قعد" يتعدى إلى جنس القعود الذي يشتمل على القرفصاء؛ وغيرها؛ تعدّى إلى القرفصاء الذي هو نوع

١) انظر: السيوطي، الأشباه والنظائر، الجزء الأول

٢) ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات، أسرار العربية، تحقيق: د/ محمد راضي مدكور و وائل محمود سعد عبد الباري، ومراجعة د/ فيصل الحفيان، الإصدار الخامس والتسعون لمجلة الوعي الإسلامي ١٤٣٦هـ. ٢٠١٥م. ص٨٧

منه؛ لأنه إذا عمل في الجنس، عمل في النَّوع، إذا كان داخلاً تحته؛ هذا مذهب سيبويه، وذهب أبو بكر بن السَّرَّاج إلى أنه صفة لمصدر موصوف محذوف؛ والتقدير فيه: "قَعَدَ القعدةَ القرفصاء" إلا أنه حذف الموصوف، وأقام الصفة مقامه؛ والذي عليه الأكثرون مذهب سيبويه؛ لأنه لا يفتقر إلى تقدير موصوف، وما ذهب إليه ابن السَّراج يفتقر إلى تقدير موصوف، **وما لا يفتقر إلى تقدير أولى مما يفتقر إلى تقدير**."[١]

فالملاحظ أن القاعدة الكلية واحدة وقد وجَّهَ بها النحاة مسألتين (جزئيتين) من بابين مختلفين، والملاحظ كذلك أن لها دورا كبيرا في ترجيح رأي على آخر.

وأود التأكيد على أن كتاب "أسرار العربية" يُعَدُّ أحدَ أهم الكتب التي حرص مؤلفوها فيها على تحقيق هذا الهدف (البناء العقلي)؛ وهي كتب لم يكونوا يقصدون منها أن يحصل الطالب قواعد علم النحو بالقدر ذاته الذي رمَوْا فيه إلى تنمية الملَكة العقلية للطالب، وأن يتعلم طرائق التفكير، وهذا شيء فوق العلم. ودليل ذلك عندي أنهم – تحت كل باب من الأبواب النحوية – لم يحرصوا على إيراد كل جزئيات الباب، وإنما كانوا يبدأون بذكر الفلسفة أو الحكمة التي انطوى عليها الباب ثم يكتفون ببعض الجزئيات التي يناقشونها مناقشة عقلية مصحوبة بذكر التعليلات للمصطلحات والمفاهيم والأوجه والأحكام، وكل ذلك يسهم في شحذ عقل الطالب وإثارته وبنائه. وإنَّ نظرةً في جُلِّ الأبواب التي عرضها الأنباري في أسراره لتوقفنا على هذا الدليل.

---

١) ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات، أسرار العربية، تحقيق: د/ محمد راضي مدكور و وائل محمود سعد عبد الباري، ومراجعة د/ فيصل الحفيان، الإصدار الخامس والتسعون لمجلة الوعي الإسلامي ١٤٣٦هـ. ٢٠١٥م: ص ١٢٧

خامسا: عرض صور الخلاف وأدلة المختلفين:

وذلك حتى يرى الدارس حركة عقول المختلفين؛ وليس ذلك حين يعرضون آراءهم في القضايا ويتعمقونها فحسب، ولكن أيضا حين تتقادح هذه العقول فيما بينها، فيرى كيف يضربُ الرأيُ الرأيَ وكيف تغلبُ الفكرةُ الفكرةَ .ولعل هذا – فيما أرى – من خير ما يبني في الدارس عقلا قويا واعيا.

وقد وجدت المسائل الخلافية منثورة في كتب النحو الراصدة للقواعد والمسائل، وظهر بعدُ نمطٌ من أنماط التأليف النحوي خاصٌّ بالمسائل الخلافية ، وأشهر مؤلف فيها هو كتاب "الإنصاف في مسائل الخلاف"لأبي البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ)[١] وكتاب:"التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين" لأبي البقاء العكبري(ت٦١٦هـ) وكتاب "مسائل خلافية" له أيضا[٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المقصود بالخلاف هنا هو خلاف النحاة، لا خلاف العرب؛ إذ إن خلافَ العرب خلافٌ استعماليٌّ؛ أي أنه خلاف في الظاهرة نفسها؛ وذلك كالخلاف بين التميميين والحجازيين في استعمال "ما" النافية، وهو خلاف ليس له دور معنا هنا في تحقيق هدف البناء العقلي، لكن النحاة يرصدونه ويفسرونه، ثم إنهم قد يختلفون في تفسيره وتفسير غيره من الظواهر التي استعملتها العرب.

فخلافُ النحاة يكون في تفسير الاستعمالات والظواهر التي رصدوها عن العرب ووصفوها. وقد يكون خلافُهم في الظاهرة نفسها من حيث وجودُها أو عدمُ وجودها، هي أو بعض صورها، وهو خلافٌ أساسُه تبايُنُ الأسسِ التي رصد النحاةُ الظواهرَ النحوية بناءً عليها؛ كاختلاف الكوفيين والبصريين في القياس

١) حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، ثم حققه د.جودة مبروك محمد.

٢) نشر "التبيين" بتحقيق: الدكتورعبد الرحمن العثيمين. ، ونشر "مسائل خلافية" بتحقيق: محمد خير الحلواني.

على المسموع عن العرب، فالكوفيون توسعوا في المسموع ولم يشترطوا فيه الاطراد، ونتج عن هذا رصدهم لظواهر أكثر عددا من الظواهر التي رصدها البصريون، ثم قاسوا عليها وقعَّدوا لها. أما المسموع عند البصريين فقد كان أقلَّ؛ لأنهم لم يكونوا يعتدون بكل المسموع من كلام العرب وإنما بما اطرد من كلامهم(١).

ثمة نوعان – إذن – من الخلاف بين النحاة ؛ الأول: الخلاف في الظواهر النحوية، والثاني: الخلاف في تفسير هذه الظواهر. وأرى أن الأول لا يفيد في تحقيق هدف البناء العقلي؛ إذ إن ناتجَه كمِّيٌّ فحسب، ولن يتجاوز كونَهُ تعددا في الظواهر المرصودة. أما الخلاف بالمفهوم الثاني – وهو الخلاف في تفسير الظاهرة – فهو الأنفع في تحقيق هذا الهدف، وهو ضروري في العلم، وسمة لازمة لتطور العلوم؛ وذلك لأن أفق الاجتهاد فيه يكون مفتوحا على نحو كبير، بعكس الخلاف في الظواهر، ومن هنا أجد أن الخليل بن أحمد كان عبقريا حين فتح باب الاجتهاد على مصراعيه في التعليل، وهو الباب الأكبر لتفسير الظواهر اللغوية – على ما بينتُ قبلُ – حين ذكر أن كل من سنحت له علة هي أليق بالمعلول مما قال هو به فليأتِ بها(٢). وكلمة "هي أليق بالمعلول" تفيدنا أنه اجتهاد مشروط وليس اجتهادا مطلقا. ومثل هذا المعنى – معنى

١) ينْظَرُ فى ذلك: السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو ، تحقيق محمود سليمان ياقوت، تحقيق محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٦م. ص٤٢٨، ٤٢٩. وينظر كذلك : الشيخ محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة"، دار المعارف، القاهرة، د.ت ص١٣٩،١٤٠ فى ترجمة الكسائى. ومنهج البصريين – فيما أرى – كان أقرب إلى طبيعة العلم وروح اللغة من منهج الكوفيين؛ لأن القاعدة لاتكون قاعدة إلا إذا كانت مطردة.

٢) انظر: الزجاجي، الإيضاح في علل النحو. ص ٦٦

الاجتهاد المشروط – قد لفت إليه ابن جني في خصائصه حين ذكر أن "كل من فُرق له عن علة صحيحة وطريق نهجة كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره"[١].

وهذا الكلام الذي فتح به الخليل – ومن ورائه ابن جني – باب **الاجتهاد** يفتح – من بابة أخرى – باب **الخلاف** على مصراعيه أيضا. لكنه يبقى خلافا في تفسير الظاهرة لا في الظاهرة نفسها؛ لأنه ناتج عن التعليل، والتعليل في النحو تفسيرٌ لما انطوت عليه الظواهر اللغوية؛ وهذا يعني أن النحاة قد يُجمِعُون على ظاهرة ما ، لكنهم يختلفون في تفسيرها؛ فهم جميعا مُجمعون على أن المبتدأ مرفوع ، لكن الخلاف بينهم في علة الرفع ؛ هل هي الابتداء أو الخبر؟ وهم كذلك متفقون على نصب المفعول معه، ولكنهم يختلفون في علة هذا النصب؛ فأكثرهم يرى أن الفعل المتقدم عليه هو الناصب له، وبعضهم يرى أنه الواو ، وبعضهم قال بأنه الفعل بواسطة الواو والكوفيون يرون العامل هنا معنويا هو الخلاف[٢]. وهو – كما رأينا – خلافٌ في تفسير الظواهر لا في الظواهر نفسها. ومن ثم فإذا كان الخلاف بين النحاة خلافا في تفسير الظاهرة لا في الظاهرة نفسها فأرى أنه يفيد الدارس ويسهم في بناء عقله[٣].

---

١) ابن جني، الخصائص. ج١ ص١٩١

٢) انظر لهذه الآراء: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، شرح وتحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، طبعة عالم الكتب، القاهرة١٤٢١هـ .٢٠٠١م.ج٢ ص٧– ٩، ج٣ ص٢٣٧–٢٣٩

٣) يرفض بعض المحدثين وجود الخلاف في النحو العربي ويرون أنه جر كثيرا من المشكلات على الدارسين، وأن خلافات النحاة الكثيرة قد أثقلت كاهل النحو العربي بما هو منه براء، وأنها كانت سببا رغّب الناس عن النحو ، وزهّدهم فيه، انظر : الدكتور إبراهيم مدكور، منطق أرسطو والنحو العربي" ص٣٤٥ – ٣٤٦. و محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية بين القديم والحديث، الطبعة الجديدة، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع.القاهرة . ١٤٢٩هـ . ص٢٣١، ٢٣٧. والملاحظ أنهما قد عمما الحكم برفض =

سادسا: العرض التوجيهي التطبيقي للشواهد والنصوص:

حيث يظهرون القاعدة من خلال النصِّ، ويذكرون مختلف الوجوه النحوية للمسائل، ويقلِّبُون المسألة على وجوهها المختلفة، فيمكنون لها في نفس الطالب.

=

الخلاف. وانظر أيضا: الدكتور ياسر حسن رجب، أفكار نحوية مطوَّرة، بحث منشور بحوليات آداب عين شمس، المجلد ٤١ (يناير – مارس ٢٠١٣) من صـ ٤٠٠ إلى صـ ٤٢٣. بيد أن الدكتور ياسر فرَّق بين نوعين من الخلاف هما : خلاف الرأي وخلاف الرؤية، وقال إن خلاف الرأي خلاف مذهبي غالبا ترى فيه اتجاها معاكسا لمذهب كامل في مقابل مذهب آخر ، ترى فيه التصلب في الفكر ، وهو خلاف جماعي محير ، وقد رفضه الدكتور ياسر وذكر أنه يمثل منطقة ضعف في اللغة ، وقضاياه قلقة، ولا يثري اللغة، ومثَّل له بكتاب" الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري. أما خلاف الرؤية فهو عبارة عن "رؤية" فردية من العلماء وليست جماعية غالبا، ومن ثم فهو شخصي تأملي فيه استبطان ذاتي، وليس فيه تصلب الاتجاه المعاكس ؛ ولذلك كان محض "رؤية" للعالم، وهذا النوع من الخلاف مقبول عنده ورآه خلافا مثمرا يثري اللغة ؛ ومثل له برأي ابن جني في مسألة عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة، التي خالف فيها ابن جني النحاة قبله. وهو تقسيم قوي ومهم في فهم الخلاف، وهو قريب مما ذكرت هنا؛ خاصة أنه قد أشار إلى أن "خلاف الرؤية" الذي رآه مثمرا مفيدا، ينشأ من جهة النظر إلى القضية الاتفاقية، أو من جهة تفسيرها، لكنه – وإن كان قريب الشبه مما ذكرت هنا– إلا أني لا أوافقه على إدراج كتاب "الإنصاف .." ضمن خلاف الرأي الذي رفضه؛ إذ ليست كل المسائل الخلافية التي يحويها "الإنصاف" تندرج تحته، كما أني لا أوافقه على رفض كل ما يندرج تحت خلاف الرأي بالمفهوم الذي ذكره ؛ والمعيار الحاكم عندي هو ما ذكرت من أنه إذا كان خلافا في الظاهرة فهو مرفوض أما إذا كان خلافا في تفسير الظاهرة فهو مقبول مهم، حتى وإن كان خلافا مذهبيا. وأرى أيضا أنه ليس كل خلاف مذهبي فيه تصلب في الفكر.

وفي كل ذلك رياضة فكرية في ممارسة التحليل للألفاظ والجمل، وهذا مما يبني العقل.

وأود أن أشير هنا إلى أن هذا المظهر أيضا له دور كبير، أو له الدور الأكبر، في تحقيق الهدف الثاني من الهدفين الاستعماليين السالف ذكرهما، وهو فهم المعاني على نحو دقيق؛ إذ كان التوجيه بيانا للوجوه النحوية الإعرابية التي أتت عليها مفردات التراكيب، ولا ريب في أن هذه الوجوه الإعرابية مبناها على المعاني الدالة عليها في التركيب.

والتوجيه هو الشق الموازي للتعليل في إطار النحو التفسيري؛ فإنه إذا كان لأية لغة نحوٌ فإن للعربية نحوين؛ نحو واصف راصد ضابط، ونحو مفسِّرٌ مُبِينٌ كاشفٌ. والتوجيه والتعليل يمثلان النحو المفسِّر. ويمكن القول كذلك إن **التوجيه** يمثل الجانب **الصائت** في النحو في مقابل **التقعيد** الذي يمثل الجانب **الصامت** فيه. والتوجيه كذلك هو الشق الذي به تتمكن القواعد في نفوسِ الدارسين، الأمر الذي يؤدي إحكامها في عقولهم، ومن هذه الزاوية يكون التوجيه متمما للتقعيد، في تعلُّمِ العلوم.

وقد تجلى هذا الجانب التطبيقي للنحو العربي مبثوثا في الكتب التعليمية ، كما أفردت له كتب بدأت بكتب معاني القرآن ثم كتب شروح الشواهد، وكتب الأمالي والمجالس. ومن أطرف ما صنع النحاة في هذا إعرابهم للمتون النحوية، مثل ما فعل الشيخ خالد الأزهري(ت٩٠٥هـ) حيث أعرب ألفية ابن مالك(ت٦٧٢هـ)في كتاب سماه:"تمرين الطلاب في صناعة الإعراب". وله أيضا كتاب أعرب فيه كافية ابن الحاجب [١].

١) انظر: ابن الحاجب، أبو عُمر عثمان بن عمرو، الكافية في النحو، تحقيق: الدكتور طارق نجم عبد الله، الطبعة الأولى دار الوفاء للنشر والتوزيع. جدة. ١٤٠٧هـ . ١٩٨٦م، مقدمة التحقيق ص٥٠

هذه هي الآليات الست التي مثلت مظاهر البناء العقلي في عرض النحاة ومعالجتهم للمادة النحوية، وقد وُجدت جميعها متداخلة ممزوجة في كتبهم التي رمت إلى تحقيق هذا الهدف.

وقد تجلَّتْ هذه المظاهر في مؤلَّفاتٍ يتضح من خلال مادتها أنها قد أُلِّفَتْ لهذا الغرض خاصةً، فلم يكن الهدف منها أنْ يحصِّلَ الطالبُ المادةَ النحويةَ فحسْبُ؛ بل كان الهدفُ – مع هذا – هو أنْ يفكِّرَ الطالبُ في هذه المادَّةِ، وبتعبير آخر: كان الغرضُ منها ليس هو أن يتعلَّمَ الطالبُ العلمَ فحسبُ؛ بل أن يتعلم طرائقَ التفكير في العلم .

وهنا تجدر الإشارةُ إلى أنَّ **تحقيقَ هدفِ البناء العقليِّ لدى الطالب يجب أن يكون في مرحلة تالية لمرحلة سابقة يتحقق من خلالها الهدفان الأولان؛** من حيثُ إقامةُ اللسانِ والقلم، وفهمُ المعاني على نحوٍ أدقّ، وبهذا يكون ترتيبُ هذه الأهداف الثلاثة التي يحققها علمُ النحو، ترتيبًا مقصودًا لذاتِهِ.

والأمر بعدُ محتاجٌ لبيان أهميته ومظاهره في التراث النحْويِّ كلِّه، وما يصلُح منها لأنْ يكون منطلَقًا لمشروع معاصرٍ في النحو العربي، يحقِّقُ من خلالِهِ علمُ النحوِ هذا الهدفَ التكوينيَّ المُهِمّ.

المبحث الرابع

صعوبة النحو العربي وهذا الهدف الغائب

تجدر الإشارةُ – في سياق بحثي هذا – إلى أنّ التصور القاضي بوجود صعوبة في النحو العربي يعود – في أحد أبعاده – إلى عدم الوقوف وِقفة تأمل نحو ما رمى إليه النحاة أثناء تعاملهم مع المادة النحوية من أهداف، أهمها هو تحقيق هذا الهدف الغائب. دليل ذلك أنهم هاجموا كل هذه المظاهر التي عرضتها آنفا ، فعابوا على النحاة أنهم كثّروا النحو بأشياء، وتكلفوا فيه فضول قول لا يعود بطائل؛ مثل التفسيرات والتعليلات التي يعتلون بها للأحكام. كما أنهم ذكروا فيه مسائل عويصة تجشموا الفكر فيها مما أدى إلى الإغراب على السامعين وإعياء الحاضرين، ومنها المسائل الافتراضية أو التمارين غير العملية، ومن ثم دعَوْا إلى حذف هذه الأشياء من النحو بحجة أنها لا تفيد الدارس نطقًا .

فقد دعا ابن مضاء – الذي رأى الدكتور طه حسين أنه لم يفكر في إصلاح النحو بقدر ما فكر في هدمه[1] – إلى **إلغاء كل ما لا يفيد نطقا من النحو** ؛ فيرى أن العلل الثواني والثوالث تعد فضل تفكير فيما وراء طبيعة أبواب النحو وأحكامه وأن من الواجب الاقتصار على وصف الطبيعة الأولى، ويقصد بها العلل الأول، فهو لا يدعو إلى إلغائها؛ لأنها هي التي تجعلنا نعرف مثلا أن كل فاعل مرفوع، أما ما وراء ذلك من العلل الثواني والثوالث فينبغي نفيها من النحو ؛ لأنها لا تكسبنا أن نتكلم كما تكلمت العرب، وإنما تكسبنا حكمتهم في كلامهم وصيغ عباراتهم، وهي حكمة **لا تفيد الناطقين بالعربية شيئا في**

١) في مقالة له بعنوان: "كتاب الرد على النحاة لابن مضاء" منشورة في مجلة مجمع اللغة العربية، ١٩٥٣م. ج٧ ص٧٦ – ٧٨

نطقهم[١] وجملته الأخيرة هذه تظهر أنه يحصر أهداف النحو العربي في شيء واحد هو سلامة النطق.

وفي إطار هذا الاعتقاد عند ابن مضاء – من وجوب حذف كل ما لا يفيد نطقا من النحو وإلغائه – دعا إلى إلغاء التمارين غير العملية أو المسائل الافتراضية ؛ حيث ذكر أنه مما ينبغي أن يسقط من النحو (ابنِ كذا من مثال كذا) [٢]كذلك مما لا يفيد نطقا ويجب حذفه بعض الاختلافات بين النحاة[٣]).

وقد تبع ابنَ مضاء في هذا الدكتور شوقي ضيف، محققُ كتابه، الذي يقول: "والحق أن النحو العربي يستغلق على الناس تارة بنظرية العامل وما تجره من كثرة التأويل والتقدير والحذف والإضمار، وتارة بما يفترض النحاة من علل وأقيسة لا دليل عليها إلا النظر العقلي، وهو نظر يعتبره ابن مضاء فضلا في النحو؛ لأننا لسنا في حاجة إليه كما أننا لسنا في حاجة إلى ما يأتي به النحاة من تمارين لا تفسر صيغا عربية، وإنما تفسر صيغا لهم يكثر جدالهم حولها، ويكثر خلافهم، وإن هذا ليحيل النحو ألغازا". [٤]

ورأى الدكتور إبراهيم بيومي مدكور أن النحو العربي قد أكثر من القوانين والضوابط، وغلا في القواعد بحيث أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم تخلُ من شذوذ واستثناء، وأسرف في التمارين غير العملية التي جاءت وليدة تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها ، ثم ذكر أن من يقرأ شرح السيرافي على كتاب سيبويه، أو شرح أبي حيان على التسهيل

١) انظر: ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة، بتحقيق شوقي ضيف ، الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة. ص١٣٠ – ١٣١. وانظر مقدمة المحقق ص٣٧

٢) السابق ص١٣٨

٣) السابق ص١٤١

٤) السابق ص٤٤

يلمس أن النحاة كثيرا ما أفسدوا النحو بما وضعوا من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية[١].

ورأى د.مدكور أن هذه كلها فلسفات عقيمة وخلافات غير مجدية ، وأننا لا نزال في حاجة لتيسير النحو وتصنيفه تصنيفا جديدا ؛ فنحذف منه ما لا لزوم له – وما أكثره – ونستغني عن التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات، ونقرب نحونا من روح العصر ومقتضيات الحياة الحاضرة[٢].

ويرى الدكتور تمام حسان في كتابه "اللغة العربية: معناها ومبناها" – وإن كانت محاولته، في هذا الكتاب المهم، تتجاوز الإطار التعليمي إلى الإطار المنهجي العلمي في النحو العربي – أن فكرة "العامل" التي قال بها النحاة قاصرة عن تفسير المعاني النحوية ، وقد استبدل بها فكرة القرائن[٣] ، ومن ثم يرى أن القول بالاعتماد على "القرائن" في فهم التعليق النحوي يجعلنا **ننفي عن النحو**

١) إبراهيم بيومي مدكور، منطق أرسطو والنحو العربي ص٣٤٥

٢) السابق ص٣٤٦

٣) وهي القرائن المقالية ، وتنقسم عنده إلى قسمين: قرائن لفظية وقرائن معنوية، ويذكر أن هذه القرائن تتضافر أو يتضافر بعضها للدلالة على المعاني الوظيفية في التراكيب العربية . ويذكر أيضا أن هذه القرائن وفهمها يغني عن فكرة العوامل النحوية التي قال بها النحاة وحاولوا بها تفسير اختلاف العلامات الإعرابية بحسب المواقع في الجملة، وهو لا يوافقهم على هذا ويرى أن هذا جعلهم يتجهون إلى إيضاح قرينة لفظية واحدة فقط، تبين عن المعنى النحوي ، وهي قرينة "العلامة الإعرابية" ، ويرى أن الحركات الإعرابية بمفردها قاصرة عن تفسير = =المعاني النحوية؛ نظرا لعدم ظهور هذه الحركات في كثير من الأحيان، وتقديرها لعدة أسباب كالثقل والتعذر...إلخ؛ وكذلك نظرا لاشتراك الحركة الواحدة في الدلالة على أكثر من معنى نحوى ، ومن ثم كانت فكرة العامل عنده قاصرة عن تفسير المعاني النحوية. انظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة الطبعة الخامسة ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦م. ص٢٣١ – ٢٣٢

العربي " كل جدل من نوع ما لجَّ فيه النحاة حول منطقية هذا "العمل" أو ذاك ، وحول أصالة بعض الكلمات في العمل وفرعية الكلمات الأخرى وحول قوة العامل وضعفه أو تعليله ، أو تأويله مما ازدحمت به كتب النحو دون طائل يكون تحته"[١]

ويرى الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف أن العلل القياسية – بحسب تنويع الزجاجي للعلة – لا غاية مفيدة لها **نطقا أو تعليما** ؛ فيقول حين ذكر القسم الثاني من أقسام العلل عند الزجاجي : " فأما العلة القياسية فأن يقال لمن قال: لمَ نصبت "زيدا" بـ"إن" في قوله: إن زيدا قائم ؟ ولمَ وجب أن تنصب "إن" الاسم ؟ [٢] ، وبصرف النظر عن الجواب الذي ذكره الزجاجي فإن السؤال وحده كفيل ببيان الغاية التي يرمي إليها، وهي غاية لا تفيد نطقا أو تعليما؛ بل على العكس من ذلك قد تشغب على عقل الدارس"[٣]

وبيِّنٌ من العبارة الأخيرة للدكتور حماسة أنه لا يكتفي بكون هذه العلل لاتفيد نطقا أو تعليما؛ بل يذهب إلى مدى أبعد؛ وهو أنها قد تضر الدارس "وتشغب على عقله" ، ولكنه لم يبين لنا مظاهر ذلك "الشغب" على عقل الدارس، وفي هذه العبارة تعميم على كل مراحل دراسة النحو، وهي، وإن كان معناها يكون صحيحا، إذا كان الدارس في مرحلة أولى من درس النحو، بيد أنها في المراحل التالية للدرس تكون غير صحيحة؛ إذ إن هذه العلل ساعتها تكون مكوِّنةً لعقل الدارس، وهذا ينقض التعميم الذي تتضمنه العبارة. وقد بينتُ قبلُ أن تحقيق البناء العقلي لدى دارس النحو يكون في مرحلة تالية لمرحلة أولى يتحقق من خلالها الهدف الأول وهو إقامة اللسان.

---

١) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها. ص٢٣٣.

٢) انظر : الزجاجي، الإيضاح في علل النحو. ص٦٤ .

٣) محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث. ص٢١٥.

والحق أن هذه المظاهر جميعها لم يلجأ النحاة إليها ترفا أو فضل تفكير بقدر ما لجؤوا إليها رامين إلى مقاصد معينة يودون تحقيقها – مع سلامة النطق – في نفس دارس هذا العلم؛ فهي تمثل رياضة للذهن ، وهي كذلك ضرب من تمكين المقاييس في النفوس – على ما نص الإمام عبد القاهر الجرجاني[١] – مما يجعل لها سُهمةً واضحة في تحقيق هذا الهدف الثالث وهو البناء العقلي، وإن كان تحقيقه يجب أن يكون تاليا لتحقيق الهدفين الأولين. ولا يخفى على الناظر أن الدعوات السالفة، التي تدعو إلى إلغاء هذه المظاهر، إنما كان منبعها ما ينطوي عليه كلام أصحابها من **حصر لأهداف النحو العربي في شيء واحد هو سلامة النطق** وهو هدف لا شك في أهميته وأوليته، بيد أنه لم يكن وحده الذي يرمي النحاة إلى تحقيقه حين رصدوا ما جرى عليه كلام العرب ووصفوا ظواهره وصفا دقيقا، مستنتجين منها قواعد النحو، ومفسرين إياها.

علينا – إذن – أن نعتقد – كما اعتقد علماؤنا القدامى – أن النحو يمُدُّ المرءَ بما يلزمه **ليفكر** على نحو صحيح كما يمده بما يلزمه **ليتكلم** على نحو صحيح.

والحمد لله رب العالمين

١) انظر : الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن ، دلائل الإعجاز. قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة . الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م. ص٢٩

الخاتمة

عرضت في هذا البحث أهداف تعلم علم النحو العربي وناقشتها على مستويَين؛ هما: الاستعمال اللغوي والتكوين العقلي، وقد جاء الكلام في المستوى الثاني على نحو أكثر تفصيلا منه في المستوى الأول، ويمكن عرض أهم ما توصلت إليه من نتائج في هذا البحث في النقاط الآتية:

أولا: إن أهداف تعلم علم النحو العربي لها بُعدان؛ بُعد يفيد على مستوى الاستعمال اللغوي، ويندرج تحت هذا البعد هدفان يسعى دارس علم النحو إلى تحقيقهما في نفسه؛ أولهما: عدم اللحن تحدثا وكتابة، وثانيهما: فهم المعاني على نحو دقيق، والبُعد الثاني يفيد على مستوى التكوين، وفيه يحقق الدارس هدفا مهما هو البناء العقلي.

ثانيا: يعد الهدف الأخير – وهو البناء العقلي – مغفولا عنه في تعليم النحو العربي وتعلمه، رغم حضوره القوي في التراث النحوي؛ فقد كان له مظهر منهجي في بنية النحو ذاتها، كما كانت له مظاهر في معالجات النحاة.

ثالثا: كشفت – من خلال البحث – عن أن ثمة علاقة بين صعوبة النحو العربي وغياب هذا الهدف في تعليم النحو وتعلمه.

رابعا: وصلت من خلال البحث إلى أن أهداف تعلم النحو العربي يجب ألا تنحصر في الهدف الاستعمالي فحسب، وإنما لابد من التنبه إلى الهدف التكويني المهم وهو البناء العقلي؛ لأن النحو يسهم في أن يتمكّن دارسه من التكلم على نحو صحيح، ويسهم أيضا في بناء عقله وتربيته.

خامسا: أوصي بأن تكون هناك دراسة موسعة يكون عملها تتبعَ هدف البناء العقلي واستقصاء مظاهره وآليات تحققه ومدى حضوره في كتب النحو العربي على اختلاف أنماطها ومنازعها ومناهجها.

- **فهرس المصادر والمراجع**

أولا: الكتب:

- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة. د.ط، د.ت.
- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.
- ابن الأنباري، كمال الدين، أبو البركات:
- أسرار العربية، تحقيق: د/ محمد راضي مدكور و وائل محمود سعد عبد الباري، ومراجعة د/ فيصل الحفيان، الإصدار الخامس والتسعون لمجلة الوعي الإسلامي ١٤٣٦هـ. ٢٠١٥م.
- رسالتان لابن الأنباري، لمع الأدلة في أصول النحو، والإغراب في جدل الإعراب، تحقيق: سعيد الأفغاني. مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٧هـ . ١٩٥٧م.
- تمام حسان:
- الأصول دراسة إبِستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب : النحو . فقه اللغة . البلاغة . عالم الكتب، القاهرة. د.ط ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م.
- اللغة العربية : معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة.الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية بصيدا وبيروت بلبنان، د.ط. ١٤٣٢هـ. ٢٠١١م
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة ٢٠١١م.
- جون والبريدج، الله والمنطق في الإسلام (خلافة العقل)، ترجمة: تركي المصطفى، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٨م.
- ابن الحاجب، أبو عُمَر عثمان بن عمرو، الكافية في النحو، تحقيق: الدكتور طارق نجم عبد الله، دار الوفاء للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ. ١٩٨٦م .
- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ،عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين يالتقايا والمعلم رفعت بيلكة الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ط، د.ت.
- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الأندلسي الإشبيلي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، سلسلة ذخائر العرب ٥٠.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، الإيضاح في علل النحو، تحقيق: الدكتور مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م .
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر:
– الأشباه والنظائر، تحقيق: الدكتور عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٣م.
– الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط ٢٠٠٦م.
– همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، شرح وتحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب ، القاهرة، د.ط ١٤٢١هـ. ٢٠٠١م.

- عبد الرحمن محمد أيوب، دراسات نقدية في النحو العربي. نشر وتوزيع مؤسسة الصباح، د.ط ، د.ت.
- عبد الرحيم فرج الجندي، شرح السلم في المنطق للأخضري، المكتبة الأزهرية للتراث. د.ط. ١٤١٨ هـ . ١٩٩٨م.
- عبد العليم إبراهيم، النحو الوظيفي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية عشرة.د.ت.
- فتحي عبد الفتاح الدجني، النزعة المنطقية في النحو العربي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
- القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، الطبعة الثانية. ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م.
- ابن مالك ، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الجياني، شرح الكافية الشافية، تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م.
- محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الجديدة ١٤٢٩هـ .
- محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي.. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السادسة، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠م.
- ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة، ، تحقيق: شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة. الطبعة الثالثة. د.ت

- مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.
- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٢م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة . د.ط ، د.ت.
- وِلتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، د.ط. القاهرة ١٩٨٤م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي، معجم الأدباء ويسمى: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.
- اليماني، عبد الباقي بن عبد المجيد، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ، تحقيق ودراسة: د.عبد المجيد دياب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ٢٠١٦م.

ثانيا: الدوريات:

- إبراهيم بيومي مدكور، منطق أرسطو والنحو العربي، بحث منشور بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٥٣ .
- طه حسين، كتاب الرد على النحاة لابن مضاء، مقالة منشورة بمجلة مجمع اللغة العربية ١٩٥٣م.
- عبد الرحمن الحاج صالح، النحو العربي ومنطق أرسطو، بحث منشور بمجلة كلية الآداب ، جامعة الجزائر، العدد الأول ١٩٦٤م .
- عبد القادر المهيري، خواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة، بحث منشور بحوليات الجامعة التونسية، العدد العاشر ١٩٧٣م.

- محمود أمين العالم، ملاحظات منهجية تمهيدية حول نقد الجابري للعقل العربي. ، بحث منشور بكتاب "العقلانية العربية والمشروع الحضاري" وهو عدة أبحاث ، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية – الرباط – المملكة المغربية ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م .
- ياسر حسن رجب، أفكار نحوية مطوِّرة، بحث منشور بحوليات آداب عين شمس، المجلد٤١ (يناير – مارس ٢٠١٣)